آثار قديمة للنصرانيَّة في غزَّة وضواحيها

للاب الدكتور لويس .وصيل

قد رحل الدكتور لويس .وصيل تريل كاتبنا حالًا الى غزَّة وتفقَّد مرارًا آثارها وزار ما يحاورها من البقايات والاخربة القديمة فتمكَّن بذلك ان يكتشف على عدَّة امكنة ذُكرت في التوراة والتواريخ القديمة وتراجم اولياء الله لم يقف قبلهُ على حقيقة بعضها احدٌ من المستشرقين. فعرض علينا نتيجة ابحاثهِ لننشرها في مجلتنا فلبَّينا بكلّ طيب خاطر الى سؤلهِ بتنسيق مقالتهِ وهي كلُّها فوائد ل . ش.

لا يجهل احد ممَّن لهم ادنى إلمام بالتواريخ الكنسيَّة انَّ دين المسيح انتشر في فلسطين منذ بدء النصرانيَّة. وقد جاء في اعمال الرُّسل(١ ما يشهد على ذلك شهادة صريحة فترى تلامذة المسيح يتجوَّلون في انحاء تلك البلاد يدعون الناس الى الايمان وانَّ كثيرين اذعنوا الى دعوتهم. الَّا انَّ انتشار النصرانيَّة كان في ضواحي المدن وارباض البلاد اكثر منهُ في نفس المدن لما كان في السكَّان من التعصُّب للوثنية لاسيَّما مدينة غزَّة وفيها كانت سائدة عبادة الاله مَرْنَاس يحجُّون الى هيكلهِ من الاقطار المجاورة. واورد صاحب كتاب التاريخ الفصحيّ (٢ انَّ فيلمون الذي وجَّه اليهِ بولس الرسول رسالتهُ كان اسقفًا على غزَّة

وذكر اوسابيوس القيصريّ في تاريخهِ (٣ : انَّ ساوانس اسقف ضواحي غزَّة (τῶν ἀμφὶ τὴν Γάζαν ἐκκλησιῶν) استشهد في عهد ديوقليسيان وكان هذا الملك نفاهُ اوَّلًا الى وادي العَرَبة وحكم عليهِ بتعدين معادن النحاس التي كانت هنالك ولم يلبث ان امر بقطع رأسهِ. ووادي العربة يمتدّ من بحيرة لوط الى خليج عقبة. واما موقع معادن النحاس فكان في جوار فَينوم (Phœnum). وهي مدينة اسعدنا الحظّ بان نقف على آثارها (٤ تُعرف اليوم باسم خربة فينان اكتشفنا رسومها في ١٠ ايلول سنة ١٨٩٦ وكنَّا اذ ذاك

---

١) اعمال ٨ : ٢٦، ٤٠ و ٩ : ٤٢، ٤٣

٢) Chronicon Paschale, II,128

٣) (Euseb., Hist.Eccl. VIII, 22, 2ʃ)

٤) راجع البشير في تاريخ ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٩٧

نازلين في قرية ضانة (١ ولما عدنا ثانيةً في سنة ١٨٩٧ الى تلك الاصقاع ناوين ان نتتبع طريق الاسرائيليين في البرية من جبل حلاق (ההר החלק) المذكور في سفر يشوع بالنص العبراني (١١ : ١٧ و١٢ : ٧)(٢ وجدنا انّ قينان السابق ذكرها هي قُرتن (קרתן) التي وردت في سفر العدد (٣٣ : ٤٢) ولا تبعد عن محلّ آخر ذُكر في السفر ذاته (٢١ : ١١) دعاهُ الكتاب عَبي (עיי) ويُعرف اليوم بخربة عَيّ . وسنعود ان شاء الله عمّا قريب الى هذه الامكنة لنجمع ما امكننا من اخبارها ورسومها

وصدق في موت القديس سلوانس ما كتبهُ ترتُليانوس انّ دم الشهداء يصير زرعًا لثمر النصرانيّة . فاخذت الديانة المسيحيّة بعدهُ بقليل تتأصّل في غزّة وكادت الاضطهادات اذ ذاك تمحو آثارها منها . واسم خَلَف سلوانس على كرسيّ غزّة أسكليباس . حضر هذا الاسقف المجمع النيقاوي ودافع عن الايمان ضدّ اريوس واشياعهِ فنقموا عليهِ ونفوهُ من كرسيّهِ فبقي منفيًّا الى زمن مُجتمع سَرْديس حيث قضى الآباء باعادتهِ الى رعيّتهِ . ومن آثارهِ كنيسةٌ بناها في غزّة للمؤمنين . ولعلّها اوّل كنيسة شُيّدت في نفس المدينة وكان المسيحيون قبلها يجتمعون في ربض المدينة خوفًا من المشركين

وقد اشتهر في غزّة باواخر القرن الرابع وغزّة الخامس القديس بُرفيريوس اسقفها . وفي ايّامهِ انتصرت النصرانيّة على عبَدَة الاوثان . فانّ هذا الشهم لم يزل يجدُّ ويسعى حتّى سمح لهُ اركاديوس الملك ابن تاودوسيوس الكبير بان يخرب هيكل صنم مَرْنَاس وسبعة معابد أُخر كانت كلُّها عثرةً لاهل البلد ولسكّان فلسطين يجترح فيها الوثنيّون اصناف المنكر . وشيّد القديس في مكان هيكل مرناس بيعةً كبيرة تُعدّ من البنايات العجيبة وكانت الملكة اودوكسية انفقت عليها الاموال الطائلة فدُعيت باسمها . ومكانها اليوم الجامع الكبير (٣ . وكانت وفاة برفيريوس سنة ٤١٩ وقيل ٤٢٠ (٤

ومن مشاهير رجال غزّة الاسقف مرقيانوس تولّى رعاية المسيحيين سنة ٥٣٦ . وكان اخوهُ والياً على البلدة شيّد فيها البنايات الحسنة من جملتها حمّامات ومشاهد وحصّن المدينة

---

١) وسمّيت سهوًا « Thana » في مجلّة الكتب المقدّسة (Revue Biblique VII, 113)

٢) وفي ترجمة الاباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت ترجم هذا الاسم بالجبل الاملس

٣) Patrol. Græc. LXV, Marci diaconi,. Vita S. Porphyrii

٤) Le Quien, *Oriens Christianus*, III, 610

بسور . وغمها هو بوركوب الغزي من فصحاء الكتاب وردت تآليفهُ في مجموع اعمال آباء اليونان (١ . اما الاسقف مرقيانوس فانهُ جدَّ في تعزيز الدين النصراني في غزة وبنايته بُنيت عدة كنائس منها واحدة كبيرة على اسم القديس الشهيد اسطفانوس كانت محكمة البناء واسعة الارجاء شيّدها بقرب الاسوار عند الباب الشرقي في موضع مرتفع ويخال لنا انَّ هذا المكان انما هو قلّة صغيرة على شمال الداخل في المدينة بازاء الجامع المعروف اليوم بجامع شمشون . وما يزيد رأينا في موقع هذه الكنيسة ان فُسيفساء مادبا المكتشفة حديثًا وفيها رسوم بلاد فلسطين تمثل بناء جميلًا عند المحلّ المذكور ليس هو سوى هذه الكنيسة . والفسيفساء الآنف ذكرها وُسمت بعد اواسط القرن السادس كما ثبت العلماء (٢ . ومما رُسم فيها صورة دير القديس سريدون . موقعهُ في غربيّ المدينة وهو مذكور في التاريخ (٣

وفي ايام الاسقف مرقيانوس نبغ في غزة شاعر نصرانيّ اسمهُ إيناس الغزي لهُ قصائد حسنة في شرح العقائد الدينية وردت في مجموع اعمال الآباء اليونان (٤

واذا خرجنا من غزة وسرنا خمسة اميال نحو الجنوب الغربي عثرنا على اخربة قرية يغطّيها الرمل ويدعوها اهل تلك الانحاء خربة أمّ التوت موقعها عند وادي غزة على ضفة النهر القبليّة . وليست هذه القرية سوى تَبَتَة القديمة (Θαβαθά) وطن القديس هيلاريون السائح الشهير (٥

واذا اعتبرنا اسم تَبَتة وجدنا انَّ تركيبها لا يختلف عن لفظ امّ التُّوت كثيرًا لان الباء من الاحرف الليّنة في اليونانيّة تكاد تلفظ واوًا . ولنا شاهد على قولنا ما جاء في رسم فسيفساء كنيسة مادبا حيث تسمَّى هذه القرية تَوَتَة (Θαυαθά) بالواو وفي

---

١) Migne, Patrol. Græc. vol. 85 — 87

٢) P. Lagrange, *Revue biblique*, VI, n° 3

٣) Patrol. Gr. XCIII, col. 1647

٤) Patrol. Græc. LXXXV

٥) راجع سيرة القديس هيلاريون للقديس هيرونيموس (Patr. Lat. XX, 31) وتاريخ الكنيسة لسوزمين (Sozomenus H. E. III, 14) . وقد دعاها بعض الكتّاب الاقدمين (تنّتة Thanatha)

بعض نسخ اعمال القديس هيرونيموس المحفوظة في دير القديس فلوريان كتبت بالوار الساكنة تَوْتَة (Thautha) . وقد ورد اسمها ايضاً في السريانية في اعمال بطرس الايبريّ اسقف مَيُومة (المينة) المكتشفة حديثاً فيدعوها مجدل توتا مجدل ثوثا (١

فلا يبقى بعد هذا ادنى ريب في الموافقة بين تَبَتة وامّ التوت الحالية . وفيها كما سبق كان مولد القديس هيلاريون ودرس هذا السانح في الاسكندريّة ثمّ رحل الى الصعيد يزور القديس انطونيوس ابي الرهبان ولمّا عاد الى وطنهِ وزّع اموالهُ على الفقراء وسار الى البريّة الى مكان قفر يبعد عن مسقط رأسهِ عشرين غلوةً موقعهُ بين البحر والمستنقعات بينهُ وبين ميومة سبعة اميال على شمال طريق مصر البحري(٢ . فانفرد هناك الى الزهد والعبادة الى ان اكتشف عليهِ بعض اللصوص فشاع اسمهُ في تلك الانحاء وعمل المعجزات العديدة فاتاهُ كثير من السكّان يطلبون اليهِ ان يرشدهم في سبل الخلاص . فابتنى لهم ديرًا كبيرًا وهو اوّل دير شُيّد في فلسطين . امّا اسم هذا الدير فما هو على ما نرى سوى دير البَلَح(٣ الذي موقعهُ في مكان يبعد ثلاثة ارباع الساعة من امّ التوت ونحو ساعتين وربع عن ميومة وبينهُ وبين البحر ميل ونصف وبقربهِ مستنقعات واسعة . وهناك آثار كبيرة لأبنية ضخمة استولى عليها الخراب يُرى بينها اعمدة من الرخام وكتابات اخذنا صورتها . وحول هذه الاخربة ضيعة صغيرة

وكانت الجموع تتقاطر الى دير القديس هيلاريون وكان وليّ الله يرشدهم ويشفي مرضاهم وصبغ بناء المعموديّة كثيرين من عبدة الاصنام . ويُخبر عنهُ انهُ اتاهُ رجل من

---

١) Petrus der Iberier, *ed. Raabe* p. 37 — راجع ايضاً كتاب كلرمون غانو Clermont — Ganneau, Archæological Researches in Palestine, p. 436

٢) Hier., l. . c. — Sozomen.. l, c.

٣) قد ظنّ العلّامة كلرمون غانو (Clermont-Ganneau l. c., p. 130) ان تَوْتة مولد القديس هيلاريون هي القرية المعروفة اليوم بتلّ العجول وانّ ديرهُ هو المكان المسمى شيخ الشوبافيّ . وهذا لا يوافق ما قالهُ الاقدمون انّ الدير يبعد سبعة اميال من ميومة وليس هناك بريّة ومستنقعات كما ذكروا — وقد زعم العلّامة فيكتور غيرين ان موقع تبتة هذه في محلّ آخر من جهة الجنوب الشرقي من الوادي يدعى خربة انتاوي بقربهِ بئر يسمى بئر انتاوي . هذا وانّنا لم نقف هناك على مكان بهذا الاسم ولم نجد احدًا يرشدنا اليهِ

ساقة الخيل اسمهُ يليانوس والتمس اليه ان يبارك خيلهُ لتفوز بسباق كان دُعي اليه في مدينة غزَّة فاجاب القديس الى سؤله واوصاهُ ان يتَّخذ لهُ شعارًا وقت السباق اسم المسيح ووعده بالفوز والانتصار. ففعل الرجل ونال قصبة السبق. وكان لهذا الامر سُمعة كبيرة في كل النواحي المجاورة وانتشر لذلك الدين المسيحي انتشارًا عجيبًا

ولما ملك يوليانوس الجاحد واخذ يضطهد النصرانية اضطرَّ القديس هيلاريون ان يهجر الى قبرس وتوفي في هذه الجزيرة في السنة الثمانين من عمره (٣٨٦ م) ونقل جسمهُ تلميذهُ هيزيكيوس الى ميومة ثمَّ دفنهُ في دير البلح باكرام. وكان قبرهُ مُزارًا يتوارد اليه النصارى ليتبرَّكوا بهِ. ولا يزال حتى اليوم اثر لهذا الاكرام فترى اهل القرى المجاورة يعظِّمون دير البلح ويزورونهُ. وللروم اسقف يدعى اسقف دير البلح يسكن في القدس

وكان للقديس هيلاريون تلامذة كثيرون نُظمت اسماؤهم في سلك القديسين(١ وقد اشتهر منهم اوريليوس من أنتيدون. وانتيدون هذه لها بقايا في شمال مَيُومة (المينة) على مسافة ميل منها تدعى اليوم لَبْلاخيَّة

ومنهم الافيون من أزالية. ولعلَّ أزالية هي نفس خربة الإثل وهي تبعد ساعتين عن غزَّة. وقد ظنَّ البعض انَّ أزالية هذه هي دير العَسَل لكنَّ دير العسل بعيد جدًّا لا ينطبق عليهِ محلُّها في رسم فسيفساء مادبا المذكورة

ومنهم أَيكسيون من بيت أجوتا (Βαιθγουδα). وليست هذه غير خربة الفَجَّة على ضفَّة وادي مَرْطبة

ومنهم اسُونيوس من كَفَركُبرا (Χαφαρχοβρα) وهي اليوم كُوفيرة موقعها نحو سبع ساعات في الجنوب عند سيل الشلَّالة

وقد كان في اواسط القرن الخامس حدًى في فلسطين لتعاليم اوطيخا واشياعهِ اليعاقبة فاشتهر من جملتهم بطرس الامير الايبري والاسقف المونوفيزيتي. وكان يسكن في دير بين ميُومة وغزَّة. ويغلب على ظننا ان آثارهُ هي الاخربة الشائعة اليوم باسم الكنيسة. وموقع هذه الرسوم تبعد سبع دقائق عن سور مَيومة الجنوبي وعشر دقائق عن بساتين غزَّة (٢

---

١) راجع تاريخ سوزومين (Sozomenus, Hist. Eccl. VI, 31, 32)

٢) Petrus der Iberier, *ed. Raabe*, 40, 50, 54; Nicephorus XV, 16

وفي زمان بطرس الايبري شاع اسم القديس فيكتور في جوار غزة (١ ولا يبعد ان ذخائر هذا الشهيد كانت نُقلت الى موضع يعرف في وقتنا بخربة الناصرة وهو على مسافة عشرين دقيقة من غزة في جنوبها الغربي . وموقعها الآن موافق لرسم الفسيفساء المكتشفة في مادبا.

وفي القرن السادس توفرت لنصارى المقاماتُ الاستقية في ظهراني غزة فنجد ما عدا مَيُومة (المينة) وأنتيدون اعني لبيلاحيةَ المدعوة ايضاً تيدر (٢ كراسيَّ أُخر منها مدبين المساة ايضاً مَنُويس وزتاي انها هي خربة ابي مدان في وادي غزة غربي جنوبي ام زرار. ومنها اسقفيةَ سيكوُمازون (Σικομάζων) (٣ . وهي غير سيكامينون المذكورة في تاريخ يوسيفوس (٤ كما بيّن ذلك الكاتب ريلند (٥ . اما فسيفساء مادبا فعيّنت موقعها الصحيح وهي اليوم الخربة المعروفة بسوق مازن في جهة الشرق بقرب قرية بني سحيلة

وبقيت احوال النصرانية في نمو وازدياد الى ظهور الاسلام . وكان يسكن وقتئذٍ في جنوبي غزة قوم من قبائل العرب المتنصرين وكان اصابهم من قبل ولاة الروم عَسْف وجور في المعاملات . فالتجأوا الى عساكر المسلمين ودعوهم الى فلسطين فلبّوا الى دعوتهم وزحفوا على غزة في ٤ شباط من سنة ٦٣٤ وظفروا بجيش الروم وفتحوا المدينة وبعد ايام قليلة اتموا فتح بقية مدن فلسطين (٦ . فسبحان من يعطي السلطان من يشاء ويترعهُ ممن يشاء. ولهُ وحدهُ الملك الدائم والبقاء.

(١ Petrus der Iberier, l. c.

(٢ Don Gatt, ZDPV, VII, 5 et 6

(٣ Tobler, Itin. Hieros. II, 331

(٤ Josephus Fl., Antiq. XIII, 29

(٥ Relandus, *Palestina*, I, 212

(٦ Theophanes, *Chronogr.*, ed. Migne, c. VIII col. 689 – Th. Nöldecke, Die Ghassanischen Fürsten, p. 45. – راجع ايضاً الصفحة ١٠٩ من كتاب فتوح البلدان للبلاذري (ed. de Goeje,)